

أيام الأحداث.. أحاديث على أطلال المجزرة!

الكاتب : أحمد أبو الخير

التاريخ : 2 فبراير 2012 م

المشاهدات : 4527



تقرع كلمة "أيام الأحداث" مسامعي مذ أن كنتُ طفلاً، فأمي مشتاقة لخالي مصطفى المعتقل في سجن تدمر منذ أيام الأحداث، وجدتي لا تكف عن الدعاء لعمي عمر المعتقل في سجن تدمر منذ أيام الأحداث، وابن عمتي طارق بلا أب، فوالده في سجن تدمر منذ أيام الأحداث.

وكانت لأبي مغامرات كثيرة أيام الأحداث أو "أيام الثمانينيات" يتذكرها ويحكىها لرفاقه، و"أيام الأحداث" هو التعبير المهدب عن تلك الحقبة الدموية والتي لا يُحبذ استخدام عبارات مباشرة لوصفها أمام طفل قد يزل بها لسانه أمام الآخرين. بعد 12 عاماً من اعتقالهم أُفِرَج عن عمي وخالي، وبعدها بسنوات عن زوج عمتي، وطبعاً عن المئات من أبناء قريتي ومدينتي بانباس والبيضا، وكانوا اعتقلوا جميعاً أيام الأحداث، أما عمي وخالي فقد كانوا طفلين في المدرسة الإعدادية، ومنها اقتيدا مباشرة إلى السجن، وبحسب خالي فلم يكونا يعرفان شيئاً عن "الإخوان المسلمين"، التهمة الجاهزة لتلك الحقبة والتي أودع بسببها عشرات الآلاف في السجون بلا محاكمة.

وأنا أكبر، كان يكبر الشغف في داخلي لأعرف أكثر عن أيام الأحداث، لم يكن في ذهني شيء عن تلك الحقبة سوى صور مروعة من المجازر: مجازر في حماة، ومجازر في سجن تدمر، مدفعية تدك حماة، ورشاشات تدك صدور معتقلين عُزِّل في سجن تدمر.. وللحقيقة، فإلى اليوم لم يُروَ شغفي بمعرفة التفاصيل سوى بعض ما نشر على المواقع الحقوقية التي على أهمية

ما فيها تردد أن الحقيقة أكثر وحشية بكثير مما نُشر.

ما أشبه اليوم بالأمس:

اليوم، وبعد ثلاثين عاماً على مجزرة حماة لم أعد شغوفاً بمعرفة تفاصيل تلك الحقبة، فأنا اليوم أعيشها كما يعيشها كل الشعب السوري اليوم، وكما عاشها أهل حماة أيام الثمانينيات لكن بصورة أخف، فعشرات القرى والبلدات والمدن السورية عاشت بالأشهر الأخيرة حملات عسكرية بربرية شبيهة في بعض أوجهها بما حُكي عن مجازر حماة، الإذلال ذاته.. القتل العشوائي ذاته.. التهجير والتجويد المقصود ذاته.. المقابر الجماعية ذاتها.. حملات الاعتقالات الخرافية ذاتها.. التدمير للقرى والمساجد والكنائس ذاته.. بل حتى التبريرات ذاتها!

عزاء حماة بعد ثلاثين عاماً أن الشعب السوري قرر رفض غبار نسيانها أو السكوت عنها، قرر الشعب السوري أن يعيش الحقبة لكي يستعيد بلده جاداً هذه المرة، عزاء حماة أن كل بلدة في سوريا استحالت إلى حماة، وعزائها؛ أن العدالة التي نامت عن قضيتها مدة 30 عاماً قد تستيقظ قريباً..!

أول درس في الثورة:

حدث وأنا يافع أن وقع بين يديّ ديوان شعري يجمع بين طياته عدة قصائد شعرية لشعراء إسلاميين معظمهم مصريين، المشترك بين القصائد أنها تتحدث عن محنتهم في فترة الثمانينيات.. فحفظت منها وأنا يافع قصيدة ما زلت أحفظ مطلعها وبعض أبياتها وكانت بعنوان "رسالة في ليلة التنفيذ"، وهي لسيد الرفاعي أو هاشم الرفاعي، وهي رسالة على لسان تائر حُكم عليه بالإعدام، وطبعاً ليس من المفارقة أن الشاعر الذي جادت قريحته بهذه القصيدة الملحمية قد استشهد هو الآخر بعمر 24 سنة فقط على يد أعدائه السياسيين.

تتمتع هذه القصيدة بحسّ إنساني منقطع النظير، أثرت بي تأثيراً بالغاً حتى جعلتني متعاطفاً مع الإسلاميين في تلك الفترة حدّ الانحياز.. وكانت أول درس آخذه في التمرد لصالح الإنسان، وأول درس في الثورة على الظلم و الطغاة. وفي الحقيقة أن نفسي حدثتني غير مرة أن أنشر هذه القصيدة في مدونتي، ولكن التردد خوفاً من إصاق تهمة "الإخوانجي" بي كانت تمنعني. لكن هذا يومها .. فإليكم:

رسالة في ليلة التنفيذ

الشهيد الشاب: هاشم الرفاعي

أبتاه ماذا قد يخطُ بناي *** والحبْلُ والجلادُ ينتظراني
هذا الكتابُ إليك من زَنانَةٍ *** مَقْرورَةٍ صَخْرِيَّةِ الجُدْرانِ
لَمْ تَبْقَ إِلَّا لَيْلَةٌ أَحْيَا بِهَا *** وَأَحْسُ أَنْ ظَلَمَهَا أَكْفَانِي
سَتَمُرُّ يَا أَبْتَاهُ لَسْتُ أَشْكُ فِي *** هَذَا وَتَحْمِلُ بَعْدَهَا جُنْمَانِي
الليلُ من حَوْلِي هُدوءٌ قَاتِلٌ *** والذكرياتُ تَمُورُ فِي وَجْدَانِي
وَيَهْدُنِي أَلْمِي فَأَنْشُدُ رَاحَتِي *** فِي بَضْعِ آيَاتِ مِنَ الْقُرْآنِ
وَالنَّفْسُ بَيْنَ جِوَانِحِي شَفَافَةٌ *** دَبَّ الخُشُوعُ بِهَا فَهَزَّ كِيَانِي
قَدْ عِشْتُ أُوْمِنُ بِالْإِلَهِ وَلَمْ أَذُقْ *** إِلَّا آخِرًا لَذَّةَ الْإِيمَانِ
شكراً لهم أنا لا أريد طعامهم *** فليرفعوه فلست بالجوعان
هذا الطعام المر ما صنعه لي *** أمي ولا وضعوه فوق خوان
كلا و لم يشهده - يا أبتى - معي *** أخوان جاءاه يستبقان

مدوا إلي به يداً مصبوغة *** بدمي وهذه غاية الإحسان!
والصمّت يقطعهُ رنينٌ سلاسلٍ *** عبّنتُ بهنَّ أصابعُ السجّانِ
ما بينَ آوِنَةٍ تمرُّ وأختها *** يرنو إليّ بمقلتي شيطانِ
مِن كُؤَةٍ بالبابِ يرُقُبُ صيدُهُ *** ويعُودُ في أَمْنٍ إلى الدَّورَانِ
أنا لا أُحسُّ بأيِّ حِفْدٍ نحوهُ *** ماذا جنّي فتمسَّهُ أضغاني
هُوَ طيّبُ الأخلاقِ مثلكَ يا أبي *** لم يبدُ في ظمأٍ إلى العُدوانِ
لكنَّهُ إن نامَ عنيّ لحظةً *** ذاقَ العيالُ مرارةَ الحرمانِ
فلربّما - وهُو المُرَوِّعُ سحنةً - *** لو كانَ مثلي شاعراً لرتّاني
أو عادَ - من يدري؟ - إلى أولادِهِ *** يوماً تذكّرُ صورتي فبكاني
وعلى الجدارِ الصُّلبِ نافذةً بها *** معنى الحياةِ غليظةُ القُضبانِ
قد طالما شارفتُها متأمّلاً *** في الثائرينَ على الأسيِّ اليقُظانِ
فأرى وُجوماً كالضبابِ مُصَوِّراً *** ما في قلوبِ الناسِ مِنْ غُليانِ
نفسُ الشعورِ لدى الجميعِ وإنْ هُمُو *** كتموا وكانَ الموتُ في إعلانِ
ويدورُ همسٌ في الجوانحِ: ما الذي *** بالثُّورَةِ الحمقاءِ قد أغراني؟
أو لم يكنْ خيراً لِنفسي أن أرى *** مثلَ الجموعِ أسيرٌ في إذعانِ؟!
ما ضررتي لو قد سكّنتُ وكَلّما *** غلبَ الأسيِّ بالعتُّ في الكتمانِ؟
هذا دمي سيسيّلُ جِريّ مُطْفئاً *** ما ثارَ في جنبيّ من نيرانِ
وفؤادي الموارُ في نبضاتِهِ *** سيكفُّ في غدِهِ عن الحفَقانِ
والظلمُ باقٍ لن يحطّمَ قيدهُ *** موتي ولن يودي به قُرْباني
ويسيرُ ركبُ البغيّ ليس يضيّرهُ *** شاءَ إذا أجتُتتْ مِنَ القطعانِ
هذا حديثُ النفسِ حينَ تشفُّ عن *** بشرّيتي وتمورُ بعد ثوانِ
وتقولُ لي: إنّ الحياةَ لغايةٍ *** أسمى مِنَ التّصفيقِ للطُغيانِ
أنفاسُك الحرّى وإنْ هي أخدمتُ *** ستظلُّ تعمُرُ أفقهُمُ بدُخانِ
وفروحُ جسمِكَ وهُو تحتَ سياطِهِمُ *** قسّمتُ صُبْحَ يتقيهِ الجاني
دمعُ السّجينِ هُناكَ في أغلالِهِ *** ودمُ الشهيدِ هُنا سيَلْتقيانِ
حتّى إذا ما أفعمتَ بهما الرُّبا *** لم يبقَ غيرُ تمرّدِ الفيضانِ
ومن العواصِفِ ما يكونُ هُبُوبها *** بعدَ الهدوءِ وراحَةِ الرُّبانِ
إنّ أحتدّامَ النارِ في جوفِ التّرى *** أمرٌ يثيرُ حفيظةَ البُرْكانِ
وتتابعُ القطراتِ ينزلُ بعدهُ *** سيّلٌ يليه تدفُّقُ الطُوفانِ
فيموجُ يقتلعُ الطُغاةَ مُزْمَجراً *** أقوى مِنَ الجبروتِ والسُّلطانِ
أنا لستُ أدري هل سُنْذكرُ قصّتي؟ *** أم سوفَ يعروها دُجى النّسيانِ؟
أم أنني سأكونُ في تاريخنا *** متأمراً أم هادِمَ الأوثانِ؟
كلُّ الذي أدريه أنّ تجرعي *** كأسَ المذلّةِ ليسَ في إمكاني
لو لم أكنْ في ثورتِي متطّلباً *** غيرَ الضيياءِ لأمتي لكفاني

أَهْوَى الْحَيَاةَ كَرِيمَةً لَا قَيْدَ.. لَا *** إِرْهَابَ.. لَا أَسْتِخْفَافَ بِالْإِنْسَانِ
فَإِذَا سَقَطَتْ سَقَطَتْ أُحْمِلُ عِزَّتِي *** يَغْلِي دَمَ الْأَحْرَارِ فِي شِرْيَانِي
أَبْتَاهُ إِنْ طَلَعَ الصَّبَاحُ عَلَيَّ الدُّنْيَى *** وَأَضَاءَ نُورَ الشَّمْسِ كُلَّ مَكَانٍ
وَاسْتَقْبَلُ الْعُصْفُورَ بَيْنَ غُصُونِهِ *** يَوْمًا جَدِيدًا مُشْرِقَ الْأَلْوَانِ
وَسَمِعْتَ أَنْغَامَ التَّفَاوِيلِ ثَرَّةً *** تَجْرِي عَلَيَّ فَمِ بَائِعِ الْأَلْبَانِ
وَأَتَى يَدُوقُ - كَمَا تَعَوَّدَ - بَابَنَا *** سَيِّدُ قُبَابِ السِّجْنِ جَلَادَانِ
وَأَكُونُ بَعْدَ هُنَيْهَةٍ مُتَأَرِّجًا *** فِي الْحَبْلِ مَشْدُودًا إِلَى الْعِيدَانِ
لِيَكُنْ عَزَاؤُكَ أَنَّ هَذَا الْحَبْلَ مَا *** صَنَعْتَهُ فِي هَذِي الرُّبُوعِ يَدَانِ
نَسَجُوهُ فِي بَلَدٍ يَشْعُ حَضَارَةً *** وَتُضَاءُ مِنْهُ مَسَاعِلُ الْعِرْفَانِ
أَوْ هَكَذَا زَعَمُوا! وَجِيءَ بِهِ إِلَى *** بَلَدِي الْجَرِيحِ عَلَيَّ يَدِ الْأَعْوَانِ
أَنَا لَا أُرِيدُكَ أَنْ تَعِيشَ مُحْطَمًا *** فِي زَحْمَةِ الْإِلَامِ وَالْأَشْجَانِ
إِنَّ ابْنَكَ الْمَصْفُودَ فِي أَغْلَالِهِ *** قَدْ سَيِّقَ نَحْوَ الْمَوْتِ غَيْرَ مُدَانِ
فَأَذْكُرُ حِكَايَاتِ بِلْيَامِ الصَّبَا *** قَدْ قُلْتَهَا لِي عَنْ هَوَى الْوُطَانِ
وَإِذَا سَمِعْتَ نَجِيبَ أُمِّي فِي الدُّجَى *** تَبْكِي شَبَابًا ضَاعَ فِي الرِّيعَانِ
وَتُكْتِمُ الْحَسْرَاتِ فِي أَعْمَاقِهَا *** أَلَمَّا تُوَارِيهِ عَنِ الْجِيرَانِ
فَاطْلُبْ إِلَيْهَا الصَّفْحَ عَنِّي إِنَّنِي *** لَا أَبْتَغِي مِنْهَا سِوَى الْغُفْرَانِ
مَازَالَ فِي سَمْعِي رَبَّنُ حَدِيثِهَا *** وَمَقَالِهَا فِي رَحْمَةِ وَحْنَانِ
" أُبْنِي: إِنِّي قَدْ غَدَوْتُ عَلِيَّةً *** لَمْ يَبْقَ لِي جِلْدٌ عَلَيَّ الْأَحْزَانِ "
" فَأَذِقْ قُودِي فَرَحَةَ بِالْبَحْثِ عَنْ *** بِنْتِ الْحَلَالِ، وَدَعَكَ مِنْ عِصْيَانِي "
كَانَتْ لَهَا أُمِّيَّةٌ رِيَانَةٌ *** يَا حُسْنَ آمَالٍ لَهَا وَأَمَانِي
وَالآنَ لَا أَدْرِي بِأَيِّ جَوَانِحٍ *** سَتَبِيْتُ بَعْدِي أُمِّ بَائِي جِنَانِ؟!
هَذَا الَّذِي سَطَرْتُهُ لَكَ يَا أَبِي *** بَعْضُ الَّذِي يَجْرِي بِفِكْرِ عَانِ
لَكِنْ إِذَا انْتَصَرَ الضِّيَاءُ وَمُزَّقَتْ *** بِيَدِ الْجُمُوعِ شَرِيعَةُ الْقُرْصَانِ
فَلَسَوْفَ يَذْكُرُنِي وَيُكْبِرُ هِمَّتِي *** مَنْ كَانَ فِي بَلَدِي حَلِيفَ هَوَانِ
وَالِي لِقَاءٍ تَحْتَ ظِلِّ عَدَالَةٍ *** قُدْسِيَّةِ الْأَحْكَامِ وَالْمِيزَانِ

ملتقيات أحمد

المصادر: